

### «تقدموا» «تقدموا»



قاتلكم مبراً  
قتيلنا متهم  
ولم يزل رب الجنود قائماً وساهراً  
ولم يزل قاضي القضاة المجرم  
تقدموا  
تقدموا  
لا تفتحوا مدرسة  
لا تغلقوا سجناً  
ولا تعتذروا  
لا تحذروا  
لا تلهموا  
اولكم  
آخركم  
مؤمنكم  
كافرکم  
ودانکم مستحکم  
فاسترسلوا واستبسلاوا  
واندفعوا وارتفعوا  
واصطدموا وارطموا  
لاخر الشوق اللذي ظل لكم  
واخر الحبل اللذي ظل لكم  
فكل شوق وله نهاية  
وكل حبل وله نهاية  
وشمسنا بداية البداية  
لا تسمعوا  
لا تفهموا  
تقدموا  
كل سماء فوقكم جهنم  
وكل ارض تحتكم جهنم

لا خوذة الجندي  
لا هراوة الشرطي  
لا غازكم المسيل للدموع  
غزة تبيكنا  
لانها فينا  
ضراوة الغائبني حينه الدامي للرجوع  
تقدموا  
من شارع لشارع  
من منزل لمنزل  
من جثة لجثة  
تقدموا  
يصيح كل حجر مغتصب  
تصرخ كل ساحة من غضب  
يضخ كل عصب  
الموت لا الركوع  
موت ولا ركوع  
تقدموا  
تقدموا  
ها هو قد تقدم المخيم  
تقدم الجريح

والذبيح  
والثاقل  
والميتم  
تقدمت حجارة المنازل  
تقدمت بكارة السنابل  
تقدم الرضع  
والعجز  
والارامل  
تقدمت ابواب جنين ونابلس  
اتت نوافذ القدس  
صلاة الشمس  
والبخور والتوابل  
تقدمت تقائل  
تقدمت تقائل  
لا تسمعوا  
لا تفهموا  
تقدموا  
تقدموا  
كل سماء فوقكم جهنم  
وكل ارض تحتكم جهنم

تقدموا  
تقدموا  
كل سماء فوقكم جهنم  
وكل ارض تحتكم جهنم  
تقدموا  
يموت منا الطفل والشيخ  
ولا يستسلم  
وتسقط الام على ابنائها القتلى  
ولا تستسلم  
تقدموا  
تقدموا  
بناقلات جندكم  
وراجمات حقدكم  
وهددوا  
وشردوا  
ويتموا  
وهدموا  
لن تكسروا اعماقنا  
لن تهزموا اشواقنا  
نحن القضاء المبرم  
تقدموا  
تقدموا  
طريقكم ورائكم  
وغدكم ورائكم  
وبحركم ورائكم  
وبركم ورائكم  
ولم يزل امامنا  
طريقنا  
وغدنا  
وبرنا

سميح القاسم  
وبحرنا  
وخيرنا  
وشرنا  
فما اللذي يدفعكم  
من جثة لجثة  
وكيف يستدرجكم  
من لوثة للوثة  
سفر الجنون المبهم  
تقدموا  
وراء كل حجر  
كف  
وخلف كل عشب  
حتف  
وبعد كل جثة  
فخ جميل محكم  
وان نجت ساق  
يظل ساعدومعصم  
تقدموا  
كل سماء فوقكم جهنم  
وكل ارض تحتكم جهنم  
تقدوا  
تقدموا  
حرامكم محلل  
حللكم محرم  
تقدموا بشهوة القتل التي تقتلكم  
وصوبوا بدقة لا ترحموا  
وسددوا للرحم  
ان نطفة من دمنا تضطرم  
تقدموا كيف اشتهيتم  
واقتلوا

### أبطال غسان كنفاني .. مهارة مزج الذاتي بالموضوعي

#### هاشم غرايبة \*



شخصية زكريا في الرواية، كونه خائناً قام بالوشاية عن سالم قائد المقاومة، وخان مريم وندس شرفها وحاول إجهاض وليدها الذي تنتظره، وقد كانت نهاية هذا الخائن هي الموت كما أراد لها كنفاني. أما شخصية أبو سمير في قصة «القميص المسروق» فهو خائن أيضاً يتعامل مع الموظف الأميركي في وكالة الإغاثة الدولية.

وقد وفق كنفاني في تصوير الشعور الداخلي لشخصيته وإصرارها ومقاومتها وكذلك معاناتها وحزنها العميق، وتعرّض القصة لموقفين من التناقض: الأول، موقف القداية (لبلى) والثاني، موقف (خيري) المتخاذل الذي جسّد وعي الشعب الفلسطيني في مرحلة الخمسينيات من القرن العشرين. وحين يقرأ (خيري) ديوان عمر الخيام الذي أهدته إياه (لبلى) تستثار ذاكرته عبر رحلة الذاكرة التي اخترقت الأزمنة والأمكنة. فهذه الفتاة المثقفة الواعية تأخذ دور المناضلة لتغيير الواقع وقد كانت شخصيتها غامضة لا توحى للمقابل بالشجاعة الكامنة وراء أوثوتها، ويتضح ذلك في هذا المقطع من القصة: (لم أكن أعلم أن تلك الفتاة الناعمة... كانت تقوم بعمليات نسف يعجز عن تصويرها رجل متوسط الشجاعة). الطفل الذي بدا لنا راويًا في قصة «أرض البرتقال الحزين» كصوت معبّر عن الطبقة المغمورة والمُعذّمة في الشعب الفلسطيني، والذي يطغى صوته المعبر عن ذكريات الطفولة المشردة، ومشاعر تلك العائلة إثر نزوحها من بافلا إلى عكا، هذا الطفل يصير شاهداً ومقاوماً في قصة «كان يومذاك طفلاً»، فالطفل في هذه القصة أرسلته والدته ليتأكد من بقاء والده على قيد الحياة، وفي أثناء رحلته تعرّض لطريقهم دورية للجيش الإسرائيلي فتقتل ركاب السيارة جميعهم، وتترك الطفل ليروع أهله بمشاهد القتل التي تكررت أمام ناظريه.

تلك الخطوات الثابتة، وذلك الهدوء في سير الطفل والتوقف عن العدّ يعني اختيار المقاومة وكذلك إعلان رفض وجودي صارخ لوضعية الراوي من أساسها مماثلاً كان أم مغايراً وتفضيل اختيار وضعية المقاوم الفاعل عليها، فإذا كان الصهيوني حتى حينه يفعل (إرهاباً) والفلسطيني يروي (خارجاً ودخلاً) فإن الطفل يمضي في موقفه إلى الفعل المقابل (الفدائي والمقاوم) ويترك لسواه أن يروي.

**عن شخصية اليهودي**  
شخصية اليهودي في قصص كنفاني ورواياته انزاحت عن المفهوم المتداول عن الشخصية اليهودية، فقد تعامل مع الطرف الآخر اليهودي بموضوعية وإنسانية من جهة أخرى، ففي رواية

فلسطين من خلال عمله الصحافي المؤسس في صحيفتي «الحرية» ثم «الهدف». وكان فنّاناً تشكيليّاً بارِعاً، وقد استطاع ببراعة نادرة أن يقدّم فكره وأيديولوجية منظّمته وآراءه السياسية من خلال الصحافة والرسم والسرد القصصي معطياً لكل فن حقه، وبقدرة عالية على التواصل.

ولقد بثّ روحه، روح المثقف المناضل العاشق التقدمي الشهيد، في أبطال أعماله الإبداعية، وهو الراوي العليم الذي يبني شخصيات أبطاله ويوجههم في دروب الحياة في كل قصصه ورواياته، وقد مزج بمهارة ودقة بين الدراما الشخصية لأبطال حكاياته وبين تراجمها القضية الفلسطينية في إطار الصراع العربي الفلسطيني مع الصهاينة المحتلين، وبثّ في كتاباته بعداً عريباً وإنسانياً لعذابات أبطاله.

لا تذهب هذه الورقة لتقسيم الشخصيات حسب النوع (أمرأة، رجل، طفل...)، فأم سعد ذات ملامح جماعية ثورية مثلت الجماهيري المتحرك الذي أصبح عليه الشعب الفلسطيني بعد النكبة. وكان يمكن أن تكون «أبو سعد» الذي يشعر بمرارة الهزيمة ويرفض ذل اللجوء والمخيمات. وتظل شخصية أم سعد (في الرواية التي تحمل الاسم نفسه) من الشخصيات الفاعلة، فهي تتبنى توجهاتها في الحياة نظراً لتعمقها في تجارب الطبقة المَعْدّمة الضعيفة، فينضج ويتطور وعيها وفتانتها من خلال تجاربها الذاتية، فمعايشتها لتلك الجزئيات البسيطة الملازمة لشخصية المرأة الفلسطينية جعلت منها شخصية فنية على الرغم من بساطتها، وكما ترى د. رضوى عاشور فإنّ تلك الجزئيات البسيطة الملازمة لشخصية أم سعد التي تمر بها في حياتها اليومية وكذلك مواكبة كنفاني للواقع المرير وابتعاده عن المبالغة في رسم شخصياته، جعلتها تتميز بوصفها شخصيات فنية مأخوذة من الواقع.

الإنسان قضية  
في بواكير قصصه نقرأ قصة «إلى أن نعود» التي كتبها عام 1957 وبطل هذه القصة شخصية بلا اسم تروم الانتقام من العدو الذي عذبه وقتل زوجته. فهذه الشخصية تمثل ضحية من ضحايا العصابات الصهيونية وكنفاني لم يضع اسماً لبطل قصته فعبّر عنها باستعمال الضمير الغائب بوصف الإنسان رقمه أ مبهمة بين أرقام مبهمة، واستخدم أسلوب الوصف لعرض شخصيته وتقديمها للقارئ (كان قصيراً أ أسمر البشرة،

في موازاة البعد الأيديولوجي في سرديات غسان كنفاني، ينبغي أن نتحدث عن القصيدة في اختيار أبطال هذه السرديات.

لم يذهب غسان كنفاني لاختيار أبطال مكملين بالغار ولا زعماء مرمّجين بالهزيمة ولا استلهم شخصياته من الماضي التليد، بل استنبهت من رحم القضية الفلسطينية وصوّرهم في بيئتهم وضمن طبقاتهم الاجتماعية، واخيمه عن خيمة تفرق)، كما يقول.

وقد قدّمهم للقارئ معتمداً على تداعيات تيار الوعي والمونولوج الداخلي والوصف الخارجي مستفيداً من تقنيات السينما، بعيداً عن بلاغة المحسنات البيعية والجمال الانشائية، ومعتمداً بلاغة الصورة الفنية وتنامي الأحداث وتطور الشخصيات. صنع كنفاني أبطالاً عديدين بإطار واقعي مقنع دون استعراض ثقافي، وبلا تعال بلاغي أو معرفي على القارئ، واستطاع التأثير بقرائه، واغاضة أعدائه، وبناء موثق تقدمي إنساني راسخ ما زلنا نهندي به إلى يومنا هذا.

يجد القارئ لكتابات غسان كنفاني سرداً ديناميكياً متحركاً يعطي الزمان والمكان الذي تتحرك فيه شخصيات سردياته منحنى خاصاً بين البعد الموضوعي المرتبط بالأحداث العامة، والبعد الذاتي الذي تنجلي من خلاله ملامح الشخصية وخصوصيتها.

وقد أجاد غسان عبر تنوع الشخصيات بتصوير عذابات الفلسطيني والأمة وتغلغل في الطبقات المسحوقة فينهضها لتقاوم، وينحاز غسان للثوار المهمشين أمثال شخصية حامد في رواية «ما تبقى لكم»، التي تنتهي بانتصار حامد وشقيقته مريم، ومثل شخصية العاشق في رواية «العاشق» الذي يتحول من صعلوك ذي شخصية فوضوية إلى مناضل في صفوف الطبقة العاملة، حيث يصفه رئيس العمال (أرأيت في عيني العاشق وميضاً خفياً... إنه نوع من الرجال ينبت فجأة أمامك، فإذا بك غير قادر على نسيانه)...

غسان بطلنا

جدّد كنفاني في تقنيات السرد العربي من خلال الاعتماد بشكل كبير على المونولوج الداخلي لأبطال قصصه ورواياته، وتوظيف تقنيات السينما في رسم المشهد القصصي وصور بطلات وأبطال قصصه في بيئتهم الواقعية. كنفاني مثقف ثوري صاحب أيديولوجيا قوامها الحرية والتحرير والانحياز للمضطهدين، وهو ابن حركة القوميين العرب، ثم صار لسان حال الجبهة الشعبية لتحرير

«عائد إلى حيفا» قدّم كنفاني شخصية (ميريام اليهودية) القادمة من إيطاليا والتي اكتشفت زيف الادعاء الصهيوني حين رأت شابين من عصابات الهاغاناه الصهيونية يحملان طفلاً عريباً ميتاً ملطخاً بالدماء وقاما برميّه في شاحنة، فقالت لزوجها إن ذلك طفل عربي ميت، وقد رأيتهم مكسواً بالدم. وعند سؤال زوجها (أيفرت كوشن) عن كيفية معرفتها بذلك أجابته قائلة: (ألم تر كيف ألقوه في الشاحنة وكأنه حطبة؟ لو كان يهودياً لما فعلوا ذلك!). وكذا الأمر بالنسبة إلى شخصية قائد الدورية الصهيونية المتعجرف في قصة «كان يومذاك طفلاً»، وشخصية الجندي الصهيوني النائه في الصحراء في رواية «ما تبقى لكم».

وتبدو لنا الشخصية الصهيونية أيضاً ذات صورة عنصرية تُبغض الآخرين، وهي ميّالة للسطوة والتجبر، وتتعامل مع الآخرين على أساس الدين والعرق. وتميز ذلك التقديم للشخصية الصهيونية بالاقتران على وصف الملامح الجسمانية للشخصيات مع تتبع أفعالها الوحشية دون الغوص في دواخلها.

كذلك قدم شخصية الخائن أيضاً، فلا نجد ملامح نفسية واضحة لشخصية زكريا الذي ونسى بسالم قائد المقاومة، وكذلك شخصية أبو سمير العامل في وكالة الغوث الدولية الذي يسرق قوت اللاجئين.

عابنت شخوص هذه الرواية بمخيلة روائي: ثلاثة رجال من أجيال مختلفة اختارهم غسان بعناية مزية هامة قضاوا داخل خزان السيارة. هل يعقل أنهم ماتوا في لحظة واحدة؟ بماذا كان يفكر كل واحد منهم وهو يرى زميله يقضي نحبّه؟ ألم يرفض أحدهم الخزان وهو يلفظ أنفاسه؟ هل دقوا جدران الخزان ولم يسمعهم أحد؟ سؤال أبو الخيزران الانتهازي اللامبالي كان لموتي رماهم في مكب النفايات. فهل نصدقه؟

\*\*\*

لقد قدّم كنفاني سلوك شخصياته بشكل طبيعي لا افتعال فيه، فصوّر الكاتب لحظات الضعف والقوة الكامنة في النفس البشرية، ومزج بمهارة الذاتي بالموضوعي، وزاوج بين العالم الخارجي الذي تتحرك فيه الشخصية وبين وجودها النفسي الباطني ببراعة، وقدّم لنا أدباً مقاوماً وإنسانياً ما زال يحفز الأجيال للشورة على الواقع المرّ ورفض الاحتلال والاستغلال، والانحصار لقيم الحق والخير والجمال.

(\*) نصّ ورقة قدّمت ضمن مؤتمر «غسان كنفاني للرواية العربية» الذي عقد مؤخراً في العاصمة الأردنية عمّان.

**روائي وقاص أردني\***